الزراعة عند الأنباط

خالد أكرم الحموري

البحث في أصول الحضارات هدف نبيل يجعلنا نقدّر ما وصلت إليه حضارتنا العربيّة من تقدّم وازدهار وبه ندرك أنّ التنظيمات الراقية لحضارتنا لم تأت من فراغ وإنّما جاءت كامتداد تأريخي لأصول هذه الحضارات الزاهرة. كما ندرك أيضاً أنّ التاريخ العربي قبل الاسلام لم ينل العناية الكافية من قبل الباحثين القدامى والمحدثين إلاّ حظّاً يسيراً. من هنا جاء اهتمامي بهذا النوع الصعب من الدراسات عن واحدة من الممالك التي قامت في شمال غرب الجزيرة العربيّة وهي مملكة الأنباط.

وقد كان الأنباط وما زالوا محوراً لاهتمام بعض المستشرقين والمؤرخين كما عمل الآثاريون على اكتشاف ما هو غامض من حضارتهم وتسليط الأنوار عليها عبر عمل شاق خلال هذا القرن، فكانت الدراسات العلميّة المستندة على ما أكتشف من آثار والتي شملت كافة نواحي الحياة، التجارة وطرق القوافل والزراعة والرعي والمجتمع والدين ودورهم السياسيّ وأثره على المنطقة... الخ. وكل ذلك يعكس أهميتهم وتأثرهم بالبيئة المحليّة وأثرهم عليها.

وسأتناول هنا الانظمة الزراعيّة والأساليب المتبعة في مجال تطوير الزراعة، اضافة إلى التطور في تنظيمات الري والآبار والقنوات والسدود والبرك والخزانات المائية، وكذلك الحديث عن الأسس الزراعيّة المتبعة في ضوء ما أشارت إليه المصادر التاريخية مع ذكر أشهر المحاصيل التي اهتمّ الأنباط بزراعتها في مناطقهم.

وفي ضوء ما أشارت إليه المصادر من أنّ الأنباط كانوا في طبعهم ميّالين إلى التملّك، لا بدّ من الحديث عن الملكيّة الزراعيّة محاولاً رسم صورة لهذا المجتمع لم تكن واضحة من قبل وخاصّة باللغة العربيّة.

الملكيّة الزراعيّة:

عاش الأنباط في البداية حيلة بدويّة قائمة في أساسها على الرعي وكان من أمهات قوانينهم تحريم العمل والاشتغال في الزراعة وهذا ما أشار إليه ديدور الصقلي، حيث قال عنهم "كانوا يعيشون حياة بدويّة في حمى صخرة منيعة، ومن قوانينهم تحريم بناء البيوت واستعمال الخمور والاشتغال بالزراعة" (1).

وفي رأينا أنّ هذا يمثّل الأدوار الأولى من حياتهم فالمتتبع لحضارة الأنباط يجد تطوراً في الحياة الزراعيّة لأنّهم أنتجوا حضارة ومدنيّة راقية بقيت آثارها شاخصة تدلّ دلالة واضحة

ومن عادات دفن الموتى القديمة، والتي ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا، هو أنّ الميّت إذا كان رجلاً، فإنّهم لدى دفنه يضعون فوق القبر حجراً عند رأسه وآخر عند قدميه. وإذا كان المدفون إمرأة، فإنّهم يثبّتون حجراً عند رأسه وحجرين عند قدميه، وذلك للتفريق بين أجناس الموتى. ويمكن فهم هذه الممارسة إذا علمنا بأنّ عادة وضع الشاهدات التي تُعرّف بشخصيّة الميّت ليست منتشرة كثيراً في معظم الدول الإسلاميّة.

ومن ذكريات شباب المنطقة أنّهم عندما كانوا صغاراً في الستينيات والسبعينيات، فإنّهم كانوا يعثرون على عُمُلات معدنيّة كانت تبدو قديمة جداً. وكانت عليها كتابات يعتقدون أنّها فارسيّة. وكان الإنكليز الذين يمرّون بالمنطقة يشترونها منهم بثمن لا بأس به.

ويؤكّد السكّان على أنّهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن المدافن الأثريّة التي تمّ اكتشافها مؤخراً في جبل بحيص.

ويتذكّر الكثيرون أنّهم رأوا حيوانات وحشيّة في عقود مضت، مثل الذئاب والضباع وحيوانات أخرى مثل الغزلان التي كاد الصيد أن يقضي عليها.

ومن وسائل التحديث التي عرفتها القرية مدرسة الأطفال التي تمّ افتتاحها سنة ١٩٧٣، وإنّ الدور الحديثة المعروفة بـ "الشعبيّة" بدؤوا في بنائها سنة ١٩٧٧. وإنّ أوّل مولّد كهربائي وصل إلى المدام كان سنة ١٩٧٨.

الهوامش

1- أنوين ب. ت. هـ: *الزراعة في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة*. ترجمة فؤاد محمّد الصقّار. نشر قسم الجغرافية بجامعة الكويت، بدون تاريخ.

2- عبد الرحمن، عبد اللّه: *نبض الأصالة في روح المسيرة*. جمعيّة إحياء التراث الشعبي بدولة الإمارات العربيّة المتحدة. بدون تاريخ.

3- *الفنّ والتراث الشعبي* - مجلّة نصف سنويّة تُصدرها جمعيّة النخيل للفن والتراث الشعبي. العدد الثامن - السنة الرابعة، رأس الخيمة، ديسمبر ١٩٩٩.

4- القاسمي، خالد بن محمّد: *الإمارات العربيّة المتحدة - تاريخ وحضارة*. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريّة - ١٩٩٨.

5- كوردوبا، خواكين وآخرون: *ثقافة ومحيط مجموعة سكنيّة تعود إلى العصر الحديدي في شبه جزيرة عُمان: أربع بعثات في المدام* (الشارقة - دولة الإمارات العربيّة المتحدة) بحث غير منشور.

6- مُبارك علي بن حنيفة، بن علي: *إمارة الشارقة - دراسة في جغرافية السكّان*. منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة - ١٩٩٧.

يتعلّموا العادات الإجتماعيّة والتقاليد التي جرى عليها المجموع والتي يُطلب من الجميع تطبيقها.

أمّا فيما يتعلّق بالزراعة، فإنّ المسنّين يذكرون بأنّهم تلقّوا الكثير من المعلومات والأخبار الشفويّة المرويّة جيلاً عن جيل والتي تؤكّد على أنّ المدام كانت جنّة بفضل الأفلاج التي كانت تجلب المياه إليها من جبال عُمان وكانت تسقي أراضي الواحة. وتروي الأخبار بأنّ المنطقة قد مرّت في فترات جدب وجفاف لأكثر من مرّة.

وفي تاريخها الحديث عرفت المنطقة ومنذ الستينات فترة إزدهار كبير، بفضل وصول مضخّات المياه وبفضل الجمعيّة الفلاحيّة التي تمّ تأسيسها في أواسط هذا العقد بدعم ومساعدة الحكومة الكويتية، حسبما يتذكّر أبناء القرية.

وبدأت تزدهر مزارع لأشجار النخيل وزراعات أخرى كالقمح والشعير والجت. والكثير من الأراضي التي تحوّلت إلى مزارع غنّاء تمّ شراؤها من طرف مواطنين من أبو ظبي والعين.

وقد أدّى إنتشار المزارع بالمدام إلى تغيير بعض عادات السكّان، فهجروا نوعمّا حياة التنقل بين الوادي والجبل، وصاروا يهتمّون بالمزارع وقطعان الماشية.

وحلّت في السنوات الأخيرة فترة جفاف قاسية، وأصبحت المياه الجوفية التي يعتمد عليها السكّان أصلاً للشرب والزراعة غائرة وبعيدة عن سطح الأرض، وصار معدّل عمق الآبار في حدود ثمانين قدماً. هذا بالاضافة إلى درجة ملوحة الماء التي ارتفعت بشكل كبير.

وبخصوص التجارة فإنّ المسنّين من أبناء القرية يتذكّرون كيف كانت المنطقة تُنتج قبل عقود الفحم النباتي الذي كان يُصنع من خشب شجرة السّمر خاصّة. ويقولون إنّ الفحم كان يُؤخذ على الجِمال إلى دُبي والشارقة فيبيعونه ويشترون بثمنه التمور والقمح.

وكانت المدام موقعاً تتقاطع به الطرق التجاريّة، فكانت القوافل القادمة من الشارقة والمتوجهة إلى العين تمرّ بها. وكذا تلك التي تأتي من عُمان متجهة نحو الجنوب. وبسبب وفرة الآبار بالمنطقة فإنّ التجار كانوا يجدون أنفسهم مضطرّين للمرور بها والتزوّد بالماء وريّ حيواناتهم منها. وكانت طريقة سحب المياه من الآبار حتى وقت قريب تقليدية تتمّ بواسطة الدلاء والأرشية التي كانت الثيران تعمل على جرّها من أعماق تلك الآبار.

وهناك بعض الأساطير التي يرويها أبناء المنطقة، منها أنّ فخذاً من قبيلة "بني كتب" والتي تُقيم في هذه الواحة منذ القديم، هاجمت فخذاً آخر لخلاف نشب بينهما. وقامت العائلة المعتدية بقتل رجال المُعتدى عليها ودفن منازلهم بالرّمل. ومنذ تلك اللحظة أصبحت هذه العائلة معروفة بإسم "الدّفين" إشارة إلى تلك الحادثة. وبعد مرور فترة زمنيّة أرادت عائلة الدفين الأخذ بالثأر فهاجمت العائلة المعتدية وعملت على تصفية رجالها. ومنذ ذلك الحين صاروا يُسمّون بـ "أمّ صفاة"، أي هؤلاء الذين تمّت تصفيتهم.

التغذية والزراعة والثروة الحيوانيّة وطرق المواصلات وغيرها من المعلومات. وكذا محاولة التعرّف على المرحلة التحوليّة حتّى فترة ما قبل الإسلام.

وخلال سنوات التنقيب قام أفراد البعثة الإسبانيّة وكلّ حسب اختصاصه، بدراسة كلّ ركن من أركان منطقة المدام، سواء ما يخصّ المعطيات الطبيعية أو الأثريّة. وقامت بدراسات للحفريات في أكثر من موقع بالمدام، سواء في مدافن أو في بيوت تعود إلى العصر الحديدي[9].

سكّان المدام الحاليّون وبعض من ذكرياتهم

خلال الحملة الأخيرة التي قامت بها البعثة الإسبانيّة للمنطقة في شهر فبراير (شباط) ٢٠٠٠، حاولنا الاتصال ببعض سكّان القرية، غير أنّ مفاجأتنا كانت كبيرة عندما اكتشفنا بأنّ معظم سكّان المدام قد هجروها للعيش في المساكن الجديدة "الشعبيات"، والتي بنيت على شكل مجمعات موزعة حول القرية القديمة في محيط لا يتجاوز مسافة عشرة كيلومترات. وقد أخبرنا البعض بأنّه لم يبق فى القرية الأصليّة إلاّ عائلتان. وتتميّز الدور الحديثة بتوفّر وسائل الراحة فيها كالماء الجاري والكهرباء وغير ذلك.

ولم يكن من السهل الاتصال ببعض السكّان القدماء للقرية من الذين يعيشون حالياً في الشعبيات، وذلك لأنّ غالبية الرجال يعملون بعيداً عن القرية. فمنهم الموظفون الذين يعملون في الشارقة أو العين. ومنهم من يقضي نهاره يتفقّد المزارع أو قطعان الماشية التي يملكها. وبعد جهود مضنية استطعنا أن نتحدّث إلى البعض منهم والذين استقبلونا استقبالاً طيباً وفتحوا لنا أبواب بيوتهم وأكرمونا وبذلوا لنا من وقتهم، ثمّ رافقونا لمشاهدة بعض الآثار الباقية بالمنطقة، مثل بقايا فلج المدام وآثار برج يبدو أنّه يعود للفترة الاسلامية وبيوت تقع في أرض مملوكة للخاصّة ربّما تعود إلى العصر الحديدي.

يتذكّر كبار السنّ في القرية فترة طفولتهم وكيف كانت بيوتهم مصنوعة من شعر الماعز ووبر الجمل، وكيف كانت مجموعة من الخيام تشكّل مسكناً لعائلة كبيرة، حيث كانت تُرفع بعضها قرب البعض الآخر. وكانت مجاميع الخيام تكوّن الضيعات والقرى التي بها فضاءات مشتركة. وكانت "الحضيرة" أهمّ مكان لاجتماع أبناء القرية، حيث يلتقي الرجال بعد الفراغ من أعمالهم لتناول القهوة أو التحدّث في مختلف الشؤون أو لأداء الصلاة أو لحلّ المشاكل التي تؤثّر على واحد أو أكثر من أبناء القرية.

وكان للشيخ الذي يتمّ اختياره بالتراضي نفوذ كبير، وكانت كلمته مسموعة من قبل الجميع ورأيه كان بمثابة الحُكم الذي لا يقبل الردّ. ويُذكر بأنّ شيوخ القرية هم من عائلة "هويدن". وكان الأطفال يحضرون تلك المجالس منذ حداثة سنّهم من أجل أن

9- خواكين كوردوبا وآخرون: ثقافة ومحيط مجموعة سكنيّة تعود *إلى العصر الحديدي في شبه جزيرة عُمان: أربع بعثات في المدام* (الشارقة – دولة الإمارات العربيّة المتحدة) بحث غير منشور، ص٢.

الطينية جزءاً خاصّاً يسمّى "القطيعة" أو "الزويّة" لاستخدامها للاستحمام"[8].
أمّا البدو من سكّان البراري والكثبان الرمليّة والذين تعتمد حياتهم على الترحال، فتكون بيوتهم سهلة الحمل ومصنوعة من الشعر والوبر. ويسكنون في فصلي الشتاء والرّبيع في الأماكن التي تتوفر فيها المراعي والعشب والخضرة وتتساقط بها الأمطار. أمّا في فصلي الصيف والخريف فيتركون الصحاري ويذهبون إلى المناطق التي توجد بها مصادر المياه.

وتقع المدام ضمن منطقة استقرار يصنفها الجغرافيون في إطار المراكز التي توجد عند نهاية الأودية التي تنحدر من رؤوس الجبال غرباً نحو ساحل الخليج العربي، مثلها مثل فلج المعلاّ والمنامة والذيد ومليحة.

وتعدّ واحة المدام من أهمّ المراكز الزراعيّة في إمارة الشارقة حيث المزارع وأشجار النخيل والقرى المنتشرة على أراض تمتدّ على طول عشرة كيلومترات من الشمال نحو الجنوب وفي حدود أربعة كيلومترات من الشرق إلى الغرب.
وتقع في السّهب الزراعي المحاذي للسلسلة الجبليّة من جهة الغرب. وتساعد التركيبة الجيولوجيّة للمنطقة على إلتقاء المياه الجوفيّة تحت أرضها، الأمر الذي سهّل وجود تجمّعات سكّانيّة على مرّ العصور.

البعثة الأثريّة الإسبانيّة

إنّ من أوائل بعثات التنقيب عن الآثار في هذه المنطقة كانت البعثة العراقية في عام ١٩٧٣، والتي زارت هذا المكان وعثرت على بعض الآثار المبنيّة بالحجارة في سفوح جبل بحيص تعود إلى العصر الحديدي. وبعد مرور أربعة عشر عاماً على ذلك التاريخ قامت بعثة من مديرية آثار الشارقة برئاسة ناصر العبودي باجراء تنقيبات بمنطقة ثُقيبة الواقعة في الطرف الجنوبي من واحة المدام. وتمّت التنقيبات في بيت في حالة جيّدة يعود إلى فترة متأخرة من العصر الحديدي. وجاءت بعدها بعثة فرنسية فاكتشفت ما بين سنة ١٩٩٠ و١٩٩٣ الكثير من المناطق الأثريّة بهذه الواحة، يعود بعضها إلى العصر البرونزي وبعضها الآخر إلى العصر الحديدي وكذا إلى الفترة الإسلاميّة.

وفي عام ١٩٩٤ بدأت بعثة أثريّة مشتركة من جامعة "أوتونوما" بمدريد وجامعة "ليون" الفرنسية للقيام بحملة تنقيبات بمنطقة المدام، وذلك بالتعاون مع مديرية الاثار لإمارة الشارقة. وقد انضمّ إلى البعثة سنة ١٩٩٦ مجموعة من الباحثين من الجامعة التكنلوجية بمدريد. ثمّ عادت بعثة جامعة "أوتونوما" الإسبانيّة للتنقيب في السنوات الأخيرة بصورة مستقلّة.
وقد جعلت البعثة من بين أهدافها الأساسيّة دراسة فترة العصر الحديدي باعتبار الظروف المحيطة واستغلال الموارد المتوفرة والتغييرات التي طرأت بالمنطقة وعادات

8- *الفنّ والتراث الشعبي* - مجلّة نصف سنويّة تُصدرها جمعيّة النخيل للفن والتراث الشعبي. العدد الثامن - السنة الرابعة، رأس الخيمة، ديسمبر ١٩٩٩، ص٤٩-٥٠.

ولونه إمّا ترابيّ مائل للصفرة أو ترابيّ أسود. وقد يصل طوله إلى ما يُقارب المتر، وهو غير سام. ومن العظايا السّامّة "الوحرة" ذات اللّون الأخضر المصفرّ اللامع. أمّا الزواحف فتشمل الحيّات وأغلبها سامّ، ومنها الأفعى الغبراء أو الحمراء والتي لا يصل طولها إلى المتر الواحد. ثمّ الحنيش الرّمادي المائل للسواد وحيّة التبن المرقّطة. أمّا العقارب فهي الأخرى منتشرة كثيراً، عدا مناطق السبخات الملحيّة. وهناك نوع منها يميل لونه إلى الصّفرة وهو سامّ جداً.

النباتات

أمّا أنواع الأشجار المتوفرة هناك فمنها: أشجار الغاف والأرطة والأثل والسّمر، وهي من الأشجار الدائمة الخضرة.

ومن النباتات والأعشاب التي تنمو في الإمارات: نبات الحنظل الزاحف والنصي وهو غذاء جيّد للجمال ولباقي الحيوانات. وكذا "القرنة" و"الرّابي" و"الكحل". ثمّ النباتات التي توجد في مسطحات السبخات والسواحل المستنقعيّة مثل "اليعاضد" و"الثمام" و"العزيرة" و"الذانون" و"البقرو" و"القطفة" و"المرار" و"السعدان".

وهناك نباتات وأعشاب تدخل ضمن غذاء الإنسان مثل "البصملي" و"العرايين". ومنها ما يُستخدم دواء مثل عُشبة "الجعد" التي تُستخدم للشفاء من الحمّى. ويُستخدم المسحوق اليابس لنبات "الشنان" بمثابة الصابون وهو ينمو في الأراضي الملحيّة.

وهناك الكثير من الشجيرات التي تشكّل المصدر الرئيسي لطعام الجمال مثل "الخراز" و"الرّمث" و"العرّاد". وتوجد أنواع كثيرة أخرى مثل "الطرفاء" و"السّدر" و"الأشخر" و"الأرطة" وغيرها.

ويُعتبر حطب "السّمر" من أجود النوعيّات المستخدمة للفحم. أمّا شجرة "الغاف" فتنمو في المناطق الرمليّة والسهول. وهي من أضخم الأشجار التي يمكن رؤيتها في دولة الإمارات، إذ يصل معدّل إرتفاعها إلى ما بين ٥ و٦ أمتار، ولها غصون وفروع وأوراق كثيفة[7].

طبيعة الحياة

تتناسب البيوت الريفيّة مع معيشة القرويين وحياتهم. ففي فصل الشتاء "يسكنون في البيوت المصنوعة من اللّبن والقَشّ أو المدر "الطين"، وتُسمّى المخازن المصنوعة من الطين. وكذلك يسكنون في الخيام المصنوعة من خوص النخيل لما لهذا الفصل من طبيعة خاصّة ولما للّبن والقشّ من فاعليّة في الدفء ومنع البرودة. أمّا في فصل الصيف فتُصنع البيوت من سعف النخيل وجريدها ويُسمّى "العريش"، إذ يُغرس الجريد في الأرض ويسمح بالتهوية (...) وتحوي هذه العُرش والخيام والبيوت

7- عبد الله عبد الرحمن: *نبض الأصالة في روح المسيرة*. جمعيّة إحياء التراث الشعبي بدولة الإمارات العربيّة المتحدة. بدون تاريخ، ص١٦٨.

أمّا الدين الاسلامي فقد دخل المنطقة على يد القائد عمرو بن العاص (٦٦٤م)، وأصبحت في العصر الأموي واحداً من المراكز التجاريّة والملاحيّة المهمّة. وتطورت على سواحلها صناعة السفن التي كانت معروفة آنذاك[5].

وبحكم الموقع الجغرافي للمدام، ولكونها أحد المراكز العمرانيّة شأنها شأن قرى أخرى مثل "الذيد" و"مليحة" فقد كان لها دور الوسيط بين الساحلين الشرقي والغربي لتواجدها عند معابر الطرق السائرة غرباً أو شرقاً عبر الأودية التي بقيت حتّى يومنا هذا المعابر التي تمرّ بها القوافل والسيّارات.

وحسب إحصاء التّعداد العام للسكّان لسنة ١٩٨٠ فإنّ عدد سكّان المدام آنذاك كان ٨٢٨ نسمة، والذي من المتوقّع أن يكون تضاعف حالياً بناء على مُعطيات النموّ السكّاني في إمارة الشارقة خصوصاً وفي الإمارات بشكل عام[6].

وللأمطار دور مهمّ في طبيعة توزيع السكّان وخاصّة لدى المجتمعات الصحراويّة التي تتأثّر بشكل أكبر بهذا العنصر الحيويّ. وسقوط الأمطار قليل عادة في تلك البقاع، حيث أنّ المعدّل السنويّ لها لا يتجاوز ١٠٠ملم إلاّ في القليل من الأحيان.

وبالإضافة إلى الأمطار فإنّ توفّر مصادر المياه سواء السطحيّة منها كالعيون أو الجوفيّة كالآبار، ومدى صلاحيّة الأراضي للزراعة، كان لكلّ ذلك الأثر البالغ في تمركز السكّان ضمن مجموعات في قرى وضيعات.

وهذه الظاهرة تبرز بوضوح في السهل الحصوي من خلال المجاميع السكنيّة في الذيد وحمدة ومليحة والمدام والرّفيعة. وقد شهدت هذه المناطق خلال العقود الأخيرة تنمية زراعيّة واسعة وذلك باستصلاح الأراضي وحفر الآبار وإقامة المزارع التي أصبحت منتجعاً للموسرين من السكّان لقضاء فترات من الرّاحة والاستجمام فيها.

الحيوانات

وفي هذا الموقع كما في معظم مناطق الإمارات حيوانات يقوم البدو برعيها مثل الإبل والأغنام والماعز. ويرعى سكّان المناطق الزراعيّة الأبقار والخيول والبغال والحمير كذلك.

وتوجد أيضاً حيوانات أخرى مثل الغزلان والوعول والمها والأرانب. كما توجد حيوانات متوحشة كالذئاب والضباع والثعالب والنمور والفهود. هذا بالاضافة إلى الطيور وخاصّة منها العقبان والصقور. وكذا الشاهين والحبارى والكروان والقطا والغربان والهدهد وطيور البحر بأنواعها والبوم والقبّرة والسنونو والبلبل.

وتُعرف بالمنطقة حيوانات أخرى مثل الهرّ الوحشي والظربان (الضباحة) والأرانب البريّة. وتنتشر الفئران والقنافذ والخفافيش في معظم المناطق بالإمارات. وهناك أنواع من العظايا والزواحف والعناكب والعقارب وحشرات أخرى. وهناك الضبّ

5- المرجع السابق، ص٣٦.

6- المرجع السابق، ص١٨٢.

والثروة السمكيّة عام ١٩٨٠ بتنظيف خمسة منها[2].
أمّا فيما يتعلّق بالمياه الجوفيّة، فهي تختلف في وفرتها من منطقة إلى أخرى. ويبدو أنّ مستوياتها قد هبطت في السنوات الأخيرة بشكل مقلق. ثمّ إنّ نسبة الملوحة أخذت ترتفع فيها بسبب تسرّب مياه البحر، وخاصّة في المناطق القريبة من الساحل، علماً بأنّ المناطق الداخليّة هي الأخرى تُعاني من هذه المشكلة.

وتقوم سياسة الإمارات منذ تأسيسها كاتّحاد فيدرالي على محاولة توفير الأمن الغذائي وتحسين المناخ ومنع زيادة التصحّر وحماية البيئة من التلوّث. ولهذا فقد شهد قطّاع التشجير والزراعة تطوراً مهمّاً، وتحوّلت الكثير من الأراضي القاحلة إلى مناطق زراعيّة وبساتين. وتمّ استخدام التقنيّات المتطورة في الزراعة بما فيها البيوت المحميّة والأساليب الحديثة في الريّ. وقد بلغ مجموع مساحة المزارع في الإمارات حتى عام ١٩٩٤ حوالي ٨٦ ,٧١١ دونماً[3].

السكّان

وبخصوص الأصول التاريخيّة لسكّان إمارة الشارقة، فإنّ الإكتشافات التي قامت بها بعثات التنقيب المختلفة إلى هذه المنطقة تؤكّد بأنّها كانت مسكونة من قبل جماعات بشريّة تعود إلى العصر الحجري الحديث. وتدلّ الآلات التي تمّ العثور عليها بأنّ هؤلاء السكّان كانوا يعرفون الزراعة.
وقد بدأت البعثات الأثريّة نشاطها في هذه الإمارة سنة ١٩٥٨، وتمّ العثور على مواقع أثريّة مهمّة، منها بعض المدافن الواقعة إلى الشمال من مدينة الشارقة والتي يعود تاريخها إلى ألف سنة قبل الميلاد تقريباً. وكذا موقع قرية "المليحة" والذي يعود ما تمّ إكتشافه فيها إلى القرنين الرّابع والثالث قبل الميلاد[4].
غير أنّ أصول تلك المجموعات السكّانيّة التي أقامت بهذه المنطقة غير معروفة بشكل دقيق ولا يُعرف بأيّة لغة كانوا يتحدّثون. وهناك إعتقاد بأنّ أصول البعض منهم تعود إلى اليونانيين، أو هم من السكّان المحليين الذين تأثّروا بالحضارة اليونانيّة.
ويميل بعض المؤرخين إلى الإعتقاد بأنّ الفينيقيين كانوا من أوائل الجماعات السكّانيّة التي استوطنت ساحل عُمان والخليج، قبل أن تنتقل إلى مراكزها على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط. ويؤكّد البعض على أنّ القبائل العربيّة هاجرت من اليمن بعد إنهيار سدّ مأرب واستقرّت بهذه المناطق. وتشير مراجع أخرى إلى أنّ عدداً من القبائل وفدت من قلب الجزيرة العربيّة وشمالها واستقرّت بهذه الجهات بعد القرن الخامس الميلادي.

2- المرجع السابق، ص٢٠.

3- خالد بن محمّد القاسمي: *الإمارات العربيّة المتحدة - تاريخ وحضارة*. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريّة - ١٩٩٨، ص١٢٩.

4- علي بن مُبارك علي بن حنيفة: *إمارة الشارقة - دراسة في جغرافية السكّان*. منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة - ١٩٩٧، ص٣٦.

المدام (الإمارات العربيّة المتّحدة): نظرات في الطبيعة والسكّان

وليد صالح الخليفة

جامعة "أوتونوما" بمدريد

تقديم

بما أنّ موارد المياه والزراعة في أي منطقة تشكّل العنصر الأساسيّ للتجمعات السكّانيّة منذ قديم الزمان، فإنّنا نبدأ حديثنا عن منطقة المدام بهذه النقطة الجوهريّة التي كان لها الأثر البالغ في تنقّل البدو منها وإليها تبعاً لوفرة أو ندرة الماء، هذه المادّة الأساسيّة التي لا حياة بدونها. وسنتعرّض كذلك لنقاط أخرى لها صلة بحياة السكان بشكل أو بآخر، كالظروف الطبيعية والتجارة وغير ذلك.

تنقسم دولة الإمارات العربيّة إلى أربعة أقاليم زراعيّة، وهي: الإقليم الشّمالي والأوسط والشّرقي والجنوبيّ. وتقع منطقة المدام في الإقليم الأوسط الذي يشمل بالاضافة إليها الذيد وفلج المعلاّ ومليحة ومصفوت.

والمدام هي من أعمال إمارة الشارقة. ويملك الحاكم مُعظم الأراضي ملكيّة مباشرة، مع أنّ هناك بعض الأراضي المملوكة للمواطنين ملكيّة مطلقة بسبب شرائها في الماضي. وتوجد أراض أخرى أُعطيت للمواطنين لاستغلالها فقط[1].

وتعود الأنشطة الرئيسيّة لوزارة الزراعة والثروة السمكيّة في الإقليم الأوسط إلى عام ١٩٧٨، حيث تمّ انشاء محطّة للتجارب الزراعيّة في الذيد مساحتها ٨٠٠ دونم، وبها أربعة أقسام رئيسيّة وهي: زراعة الحدائق (البستنة) والرّي ووقاية النباتات والأسمدة. وقد عرف هذا الإقليم خلال تلك الفترة إنتاجاً لا بأس به للخضروات والفواكه، مثل الطماطم والسلق والبصل والبطيخ. واعتباراً من سنة ١٩٨٠ تمّ تجريب زراعة الحمضيّات المستوردة من إسبانيا وإيطاليا، وكذا المانجو والتين والبنّ. ويتمّ في الكثير من المزارع استخدام أسلوب الريّ بالتنقيط.

الماء

أمّا موارد المياه فتنقسم إلى قسمين: مياه سطحيّة ومياه جوفيّة. فالمياه السطحيّة تشتمل على الأفلاج والعُيون. وتُشير الإحصائيات إلى أنّ هناك ٣٠ فلجاً معروفة في دولة الإمارات كاملة. وتمتدّ تلك الأفلاج ما بين كيلومتر واحد وستّة كيلومترات، ويتراوح عمقها ما بين مترين إلى ثلاثة أمتار. وقد قامت وزارة الزراعة

1- ب. ت. هـ. أنوين: *الزراعة في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة*. ترجمة فؤاد محمّد الصقّار. نشر قسم الجغرافية بجامعة الكويت، بدون تاريخ. ص٢٧-٢٨.

فهرست الموضوعات العربيّة:

دراسات عن بلاد العرب القديمة

المؤلف	الموضوع	الصفحة
١- وليد صالح الخليفة	المدام (الإمارات العربيّة المتّحدة) نظرات في الطبيعة والسكّان.	
٢- خالد أكرم الحموري	الزراعة عند الإنباط	

لدراسة العبرية والسريانيّة والعربيّة والأثيوبيّة باشراف السيّد "پ. خواكين ماريا پنويلا"، مدير معهد "فرانثيسكو سواريث" من المجلس الأعلى للبحث العلمي (C.S.I.C.) ودرس في كليّة الفلسفة والآداب بجامعة مدريد ما بين ١٩٥٨ و١٩٦١ دورات في اللغة والأدب الأكديين، وكذا درس ما بين سنة ١٩٦١ و١٩٦٤ فقه اللغات الكلاسيكلة واللغة العربيّة. وقد دفعه حبّه للغات إلى دراسة لغات أخرى مثل الآرامية والقبطيّة والسومرية باندفاع كبير.

ومنذ سنة ١٩٦٣ وخلال أربعة وثلاثين عاماً مارس عمله كمدرّس للغات الكلاسيكية والعبرية في المدرسة الإكليريكية بمدريد، وفيما بعد في مركز الدراسات اللاهوتية "سان داماسو"، والذي تحوّل فيما بعد إلى "كليّة سان داماسو للاهوت". وقد جعله صبره الكبير واهتمامه الدائم بطلابه يعرفهم لا بالنصوص الدينية فحسب بل كذلك بالأدب الكلاسيكي والشرقي، الأمر الذي أدى إلى ظهور ثمار ذلك الجهد من خلال تلامذته الذين هم اليوم أساتذة في مختلف الكليات والمراكز سواء المدنية أو الدينية الكنسية. ولم يقتصر عمله التعليمي على قاعات الدرس في المدرسة الإكليريكية، لأنّه درّس ولمدة عشر سنوات اللغة الأكديّة في "جامعة كومبلوتنسي" بمدريد، حيث كان رائداً حقيقياً فى مثل هذه الدراسات المرتبطة باللغات الشرقيّة. وهو يعمل مشكوراً وبتفانٍ منذ سنة ١٩٨٩ وحتى الآن في "المعهد الأبرشي سان خوستينو لفقه اللغات الكلاسيكية والشرقيّة". والذي يعلّم فيه العبرية والأكديّة والسومرية والقبطية والأثيوبية من أجل تكوين متخصصين يمارسون عملهم في مختلف الأقسام بالجامعات الاسبانية والأجنبيّة. وبصمت وصبر دائبين قام بانجاز عمل يشكر عليه في ميدان فقه اللغات الشرقيّة إذ تمكّن من خلال تكوين عدد من الطلبة من ادخال بعض المواد في البرامج الدراسيّة للجامعات الاسبانيّة. وقد تركت الأعوام الطويلة التي خصصها للتعليم آثاراً لا تمّحي في الكثير من طلابه الذين لم يعرفوا فيه مدرساً عالماً فحسب بل أستاذاً أصيلاً.

وكان ما بين سنة ١٩٧٤ و١٩٧٧ عضواً في اللجنة الاستشاريّة لمجلة "دفاتر الانجيل"، والتي كان مشاركاً دائماً فيها. وهو أيضاً عضو في اللجنة الاداريّة للسلسلة وحيدة الموضوعات "الدراسات السامية للعهد الجديد" وذلك منذ تأسيسها سنة ١٩٩٢.

وفي الثاني من أغسطس عام ١٩٩٧ تمّ تعيينه حبراً شرفياً لقداسة البابا، اعترافاً بجهوده.

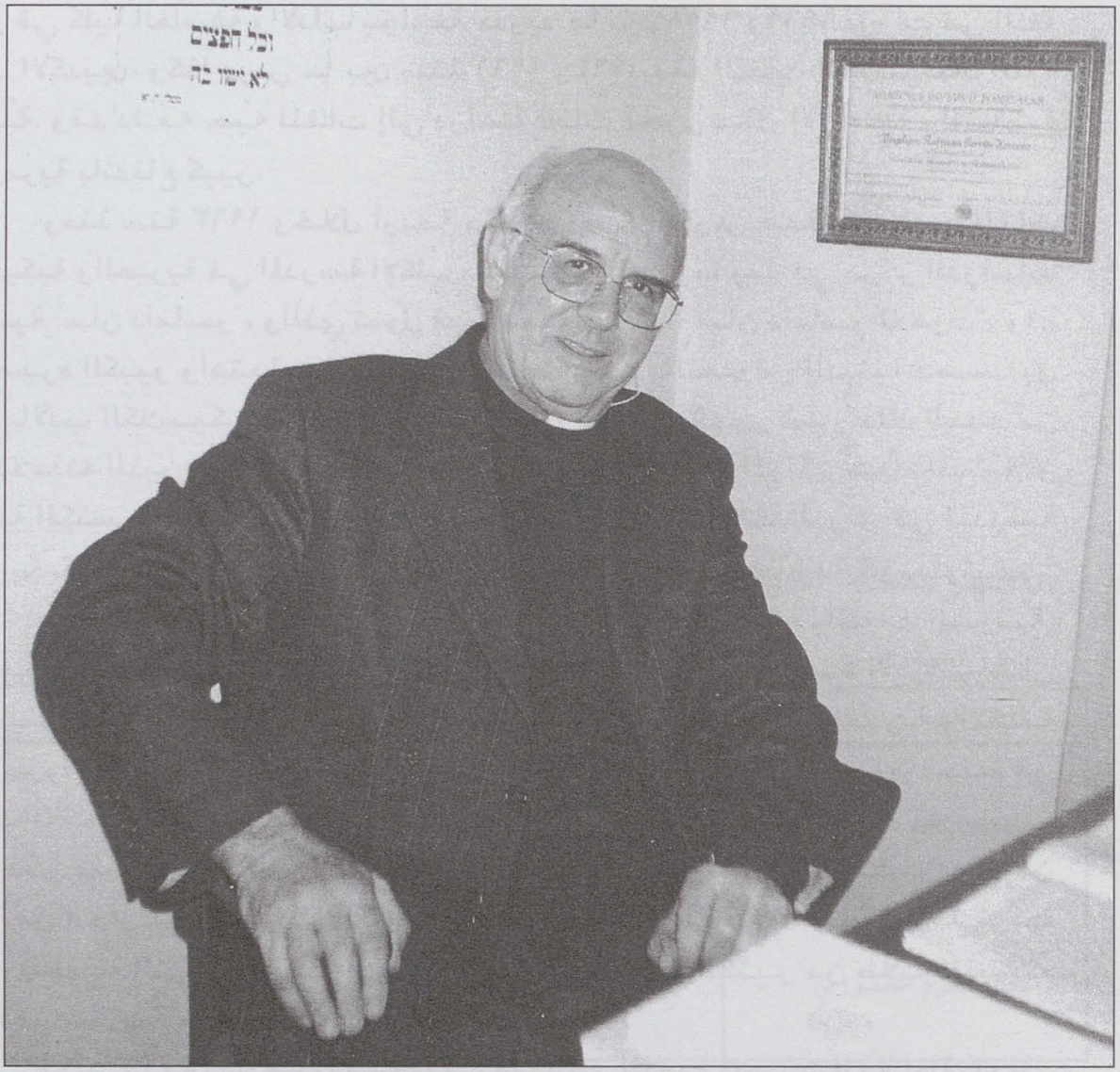

سيرة حياة

وُلد السيّد "أنخيل روفينو جاريدو هيرّيرو" في "كونديميوس دي أريبا" باقليم "وادي الحجارة" في الأول من أكتوبر عام ١٩٢٧. وعندما كان عمره اثني عشر عاماً دخل إلى مدرسة مدريد الإكليريكيّة، حيث درس العلوم الانسانيّة والفلسفة واللاهوت. وكانت أعواماً قاسية لما بعد الحرب، والتي استطاع طلاب المدرسة المذكورة الاتصال بشخصيات مثل السيّد "خوسى ماريا جارثيا لاهيغيرا". وفى التاسع عشر من مايو عام ١٩٥١ تمّ تعيينه كاهناً، وهي المهمّة التي مارسها حتى سنة ١٩٥٣، حيث طلبه مطران مدريد السيّد "ليوپولدو أيخو إي جراي" والذي كانت قد طرأت له فكرة تكوين فرقة من الكهنة الأبرشيّة لدراسة اللغات الشرقيّة. ومنذ تلك اللحظة وبالاضافة إلى ممارسة مهمته الدينية التي أضاف إليها اعتباراً من سنة ١٩٥٧ وظيفة تدريس الدين في ثانوية "إيزابيل الكاثوليكيّة"، خصّص عشر سنوات

تقديم

إنّ العنوان الذي اخترناه لهذا العدد الخاص من مجلّة "إسيمو"، وهو ša ṭudu idū لا يعود إلى هوى أكاديمي أو نزوة، بل إنّه يدخل ضمن منطق محدّد تماماً. منذ فترة ليست بالبعيدة أثار أصدقاء لنا انتباهنا إلى مضمون وشكل فقرة محددة من قصيدة كلكامش (III, 4-5) عندما عهد شيوخ أرُك إلى أنكيدو مهمّة حماية ملكهم، في الجدال الدائر حول الرحلة باتجاه غابة الأرز، حيث ذكّروا ملكهم أيضاً بالقيمة التي تفتح السبل، لأنّ ša ṭudu idu ibiršu iṣur "الذي يعرف الطريق يحمي صديقه".

فبالنسبة لرجل غربيّ، أستاذ في التعليم، تكون مسألة البحث والتدريس في موضوع الشرق الأدنى القديم، إنْ هي إلاّ البدء بمغامرة حيوية باتجاه المعرفة والنور المحفوظين في القدم في تلك الغابة الاسطورية للأرز. فالعلم المطبّق على الشرق القديم والذي أصبحت الاسطورة رمزاً له، يمثّل حقيقة صعبة لكنّها مثيرة، وغابة الأرز تستدعي في يومنا هذا مغامرة هؤلاء الذين تمكنوا عن طريق التاريخ أو الآثار أو اللغة في اسبانيا أن تزدهر العديد من المراكز والأعمال المعتبرة. ويرجع هذا الوضع إلى أنّه في الماضي، في أعوام الظلام والعوز، كان هناك من يعرف كيف يمهّد الطريق ويقاوم قلق العزلة، على الرغم من قلّة الامكانات والوسائل وقلّة الدعم والتشجيع لعملهم، مندفعين فقط بفكرة الحفاظ على المعرفة ونقلها إلى من سيتمكنون من بعثها في وقت لاحق. ومن بين هؤلاء الذين تمكنوا من السير قدماً معتمدين على إرادتهم وعبقريتهم والذين أصبحوا يشكلون جزءاً من سلسلة نموذجيّة، والتي مع "فرانثيسكو جارثيا أيوسو" و"أدولفو ربيادينيرا" وجارثيا دي سلبا إي فيكيروا" تصل إلى "بنخامين دي توديلا"، ومن بينهم أستاذ لنا جميعاً وهو البروفيسور السيّد "أنخيل ر. جاريدو هيريرو". ففي مسيرة نموذجية استمرّت لعقود في جامعة "كومبلوتنسي" بمدريد، سواء في "معهد أبحاث كونثلیار" أو في "معهد اللغات الكلاسيكية والشرقيّة سان خوستينو"، كان هو وحده دليل غابة الأرز، حيث مهّد الطريق وعلّمنا السبل، وهو الحارس الذي تخلّى لنا بالتدريج عن خيط "أريادنا". وكما كان يقول شيوخ أرُك، فهو الذي قام بحمايتنا ومنحنا خير ما عنده، لأنّه هو الوحيد الذي كان يعرف الطريق. ونحن الذين تعلمنا معه وعلى يديه نشكر له ذلك.انضمّ إلينا في هذا التكريم الكثير من الزملاء الذين قبلوا الدعوة برحابة صدر فشكراً لهم جميعاً من القلب، وشكراً لأستاذنا، لأنّه "وهو العارف بالسبل" قد دلّنا على الطريق المؤدية إلى غابة الأرز.

خواكين ماريا كوردوبا
جامعة أوتونوما بمدريد

خوان خوسي أيان
معهد سان خوستينو

ša ṭudu idū

دراسات عن الثقافات القديمة في الشرق ومصر

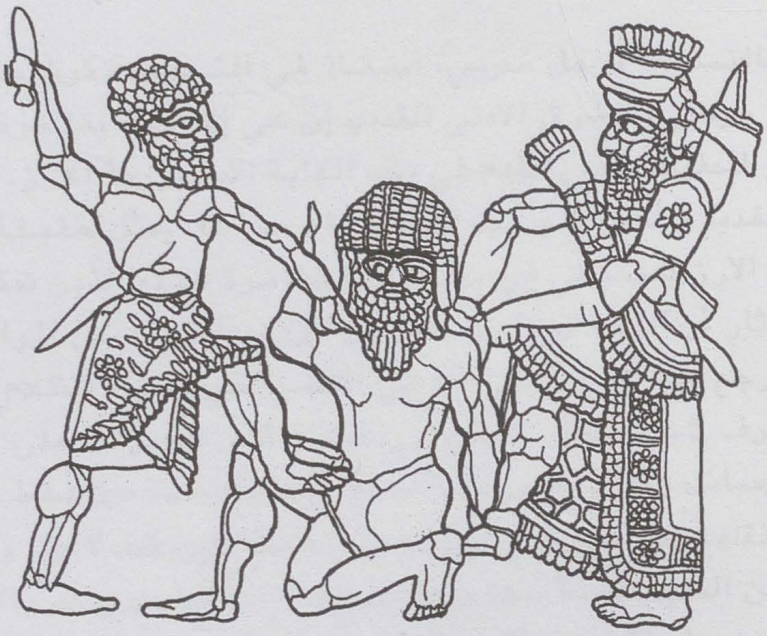

تكريم الأستاذ أنخيل ر. جاريّدو هيريّرو

مسؤولا النشر

خوان خوسي أيان وخواكين م. كوردوبا ثويلو